الفصل الخامس

التربية الإسلامية

أهدافها وأسسها وأساليبها

مقدمة :

تعتبر كلمة التربية بمفهومها الاصطلاحي من الكلمات الحديثة التي ظهرت في السنوات الأخيرة مرتبطة بحركة التجديد التربوي في البلاد العربية في الربع الثاني من القرن العشرين . ولذلك لانجد لها استخداما في المصادر العربية القديمة . وما كانت تستخدمه هذه المصادر هي كلمات مثل " التعليم " و "التأديب " ، و" التهذيب " وهي كلها مرتبطة بالتربية كما نفهمها اليوم أوثق الارتباط . وقد وردت كلمة " التربية " عند الماوردي المتوفي ٤٥٠ هـ في كتابه أدب الدنيا والدين ، وعند ابن خلدون بمعنى التنشئة في كلامه في المقدمة عن مراتب الملك والسلطان والألقاب (ابن خلدون : ص ٢٣٥) . ووردت في القرآن الكريم في صورة الفعل ومن أمثلتها قوله عز وجل " وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا " . وقد سبق أن أشرنا إلى معنى التربية في أصلها اللغوي العربي وعند الفلاسفة والمربين .

أهداف التربية الإسلامية :

كتب الذين ألفوا عن التعليم في الإسلام من المتقدمين عن أغراض التعليم ونقل عنهم المحدثون وتناولوه في كتاباتهم عن أغراض أو أهداف التربية الإسلامية . وبعضهم يجمل الكلام عن هذه الأهداف فيركزها في الهدف الديني الذي يقوم على تعلم القرآن ومعرفة العبادات المفروضة أو بعبارة أخرى معرفة الدين علما وتطبيقا . وهو هدف كبير يمكن أن يشمل التربية الإسلامية كلها باعتبار الدين الإسلامي دينا ودولة . وبعضهم لاسيما المحدثون يفصلون هذه الأهداف إلى أهداف دينية وعقلية وثقافية ونفسية (أسماء فهمي) . وبعضهم يقسمها إلى أهداف دينية وعقلية واجتماعية ومادية (خليل طوطح : ١٥٢) .

وواضح أن هناك اشتراكا كبيرا وشبه اتفاق على هذه الأهداف مع اختلاف المعالجة في التركيز أو التفصيل . ويصبح من الصعب إذن أن نتقبل ما يذهب إليه

أحد المؤلفين في التربية الإسلامية من المحدثين عندما يقول : " والرأي عندنا أنه لا يوجد أغراض للتربية عند العرب تعمهم على الإطلاق وإنما الصواب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذي يلائم هذا المذهب " (أحمد فؤاد الأهواني : ص ٩٢) .

إن أي تصور لأهداف التربية الإسلامية لابد وأن يضع في اعتباره أن مجيء الإسلام يمثل بداية تربية جديدة للمجتمع العربي . وأنه كان من الطبيعي إذن أن يرسم الإسلام مثلا أعلى للحياة مغايرا لما كان عليه حال العرب في الجاهلية أو قبل الإسلام . وعلى هذا يمكن القول بأن أهم أهداف التربية الإسلامية هو بلوغ الكمال الإنساني لأن الإسلام نفسه يمثل بلوغ الكمال الديني ، فهو خاتم الأديان وأكملها وأنضجها . يقول الله تبارك وتعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " . ويقول عز وجل : " كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " .

ومن تمام الكمال الإنساني مكارم الأخلاق . وقد جاء الإسلام ليصل بهذا الكمال الإنساني إلى قمته . وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . وهكذا يعتبر بلوغ الكمال الإنسان هدفا رئيسيا للتربية الإسلامية . ومع أن الكمال لله وحده فإن الإنسان لابد وأن يتصف بالكمال باعتباره خليفة الله على الأرض . قال سبحانه وتعالى " إني جاعل في الأرض خليفة " . وعلى الإنسان أن يسعى إلى هذا الكمال وله في هذا السعي لذة تحفزه دائما إلى مزيد من الكمال . يقول الغزالي : " إن أشرف مخلوق على الأرض هو الإنسان ، وقد كرمه الله على كثير من خلقه ، وهذا التشريف والتكريم يدفع الإنسان دائما إلى بلوغ مزيد من الكمال .

إن موضوع التربية الإسلامية شأنها شأن غيرها من أنواع التربية هو الإنسان بكل مقوماته الجسمية والعقلية والنفسية والوجدانية . ذلك أن طبيعة الإنسان من المنظور الإسلامي تتضمن كل هذه المقومات لتحقيق حياة خلق من أجلها ورسالة كلف بأدائها .

ومن ثم فإن التربية الإسلامية تقوم على أساس أن الكمال موجود بالقوة في طبيعة الإنسان بمعنى أن الإنسان قادر على بلوغ هذا الكمال إذا ما وجد من الرعاية والعناية والتربية ما يساعده على ذلك . وتصبح الوظيفة الرئيسية للتربية

في الإسلام هو الانتقال بهذا الكمال الموجود بالقوة إلى كمال موجود بالفعل بكتسبه الإنسان من خلال اساليب التربية والتنشئة التي يتعرض لها في مراحل حياته المختلفة . ومع أن الكمال لله وحده فإن الإنسان خليفته في الأرض وهو يسعى لبلوغ مراتب الكمال والمثل العليا التي رسمها له خالقه بصورة نسبية . ويقول عبد الرحمن الكواكبي " إن الترقي الحيوي الذي يسعى إليه الإنسان هو أولا الترقي في الجسم صحة وتلذذا ثم الترقي في الاجتماع بالعائلة والعشيرة ثم الترقي في القوة بالعلم والمال ثم الترقي في الملكات بالخصال والمفاخر . وهناك نوع آخر وهو الترقي الروحي . وهو الاعتقاد بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يترقى إليها على سلم الرحمة والإحسان "(أحمد أمين:زعماء الإصلاح .ص٢٦٤)

ومن أهداف التربية الإسلامية أيضا تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة وهو هدف تتزن فيه أسس التربية الإسلامية كما سيتضح من كلامنا عن هذه الأسس فيما بعد . وتقوم التربية الإسلامية على أساس الواقع المادي والروحي للإنسان دون اقتصار على جانب واحد فقط . فهي لاتريد أن يعيش الإنسان في السماء وهو في الأرض ولا أن يعيش منغمسا في الحياة الأرضية المادية وحدها . لأن في كيانه وجودا روحيا . فعالمه أوسع من عالم الحياة المادية الأرضية وحدها وأوسع من الحياة السماوية الروحية وحدها كذلك (مقداد يالجن : ص ٤٥) . إن التربية الإسلامية في اهتمامها بالواقع المادي والدنيوي للإنسان تسعى إلى الاهتمام بالجانب الروحي على قدم المساواة . وتهدف من وراء ذلك إلى أن تمتد بحياة الإنسان إلى ما هو أبعد من حياة الأرض قصيرة الأجل وتعده لحياة سعيدة أبدية في الدار الآخرة .

وتهدف التربية الإسلامية إلى تنشئة الإنسان الذي يعبد الله ويخشاه . فالله سبحانه وتعالى يقول : " وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون " . والعبادة هنا كما يفسرها علماء المسلمين لاتقتصر على العبادات من صوم وصلاة وحج ، وإنما تشمل كل حياة الإنسان وسلوكه وتعامله مع الآخرين . وطريقة عبادة الله وخشيته إنما تكون بالعلم ، فإنما يخشى الله من عباده العلماء ، والعلم هو سبيل التقوى الصحيحة إلى معرفة الله عز وجل . ولذلك حث الإسلام على العلم والسعي في طلبه وفضل أهله على غيرهم ورفعهم درجات . ومن ثم يرى المربون المسلمون أن من المعايير الهامة التي تقوم عليها أهداف التربية الإسلامية والتي تحدد بالتالي

المضمون التربوي التعليمي في الإسلام قيمة هذا المضمون وأثره في تربية الإنسان لبلوغ الفضيلة وكمال النفس عن طريق العلم بالله عز وجل وحسن التوجيه إلى الحياة الخيرة الفاضلة وتنمية العقل وكسب الرزق وكذلك قيمة هذا المضمون في نفع الإنسان في دنياه وآخرته على السواء . فالعلم فضيلة وتعرف فضيلة العلم بثمرته وهي التقرب إلى الله تعالى . أما في الدنيا فثمرته العز والوقار والاحترام وبلوغ المكانة والبعد عن السؤال .

إن الإنسان متدين بالطبع والفطرة . قال تعالى : " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها . لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون " . ومهمة التربية الإسلامية تربية لفطرة المسلم على الإيمان الصحيح وخشية الله وعبادته . والتعليم والقدوة أساس الفضيلة والأخلاق ، ولذلك كانت سيرة الرسول لها قيمة تربوية خلقية . وقد أمرنا الله بأن نتبع الرسول وأن نأخذ ما أتانا به وننتهي عما نهانا عنه . . . قال تعالى : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " . وقال تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر " . كما أن الدين ضرورة اجتماعية لأنه ينظم حياة الناس والعلاقات بينهم ؛ ويربط بينهم بسياج متين . والدين أيضا ضرورة نفسية للفرد يدفعه إلى بلوغ الكمال في الحياة والسعي والحركة والنشاط . كما يساعد على التغلب على كثير من المشكلات الاجتماعية والنفسية التي يواجهها الفرد في حياته . خذ مثالا بسيطا عندما تضيق الدنيا في وجه إنسان وتنسد أمامه السبل والمسالك عندها يجد في التوجه إلى الله والدين تفريجا عن كربه وتهدئة لنفسه .

ويتصل بالعبادة أيضا دور الإنسان في تعمير الأرض وتسخير ما أودعه الله فيها من ثروات لخدمة حياة الإنسان وتحقيق الخير للناس وما يتطلبه ذلك من استخدام للعلوم المختلفة من طبيعية ورياضية وإنسانية ونظرية كانت أو تجريبية أو تطبيقية وكلها علوم إسلامية طالما أنها متفقة ومتمشية مع الإطار الإسلامي الصحيح وطالما أنها لاتستخدم استخداما سيئا يخرج بها عن غرضها فتنحرف إلى الفساد والشر والعدوان .

ومن أهداف التربية الإسلامية أيضا تقوية الروابط بين المسلمين ودعم تضامنهم وخدمة قضاياهم . ويتم ذلك عن طريق ما تقوم به التربية الإسلامية من

توحيد للأفكار والمشارب والاتجاهات والقيم بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . وبهذا تكون التربية الإسلامية عاملا فعالا في تماسكهم ووحدتهم وجمع شملهم وتكتيل جهودهم وجعلهم جميعا على قلب رجل واحد .

والتربية الإسلامية تربية لضمير الإنسان باعتباره الرقيب على كل تصرفاته وخير عاصم له . فصلاح الإنسان مرهون بصلاح ضميره . قال تعالى : " ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير " . وهو يعلم السر والجهر " . وهذا يعني أن الله رقيب على الرقيب من نفس الإنسان . ولا خير في الضمير إذا لم يكن حيا . فإذا تبلد أصبح الإنسان كالحيوان وتبلد معه الشعور ونامت الفضيلة والنخوة لديه . فالشخص بلا ضمير هو إنسان ميت الحس . وتربية الضمير تكون بالإيمان الصحيح بالله الذي يعلم السر والجهر وتكون أيضا بعبادته " أن تعبد الله كأنك تراه " .

أسس التربية الإسلامية :

تستند التربية الإسلامية إلى مجموعة من الأسس والركائز الرئيسية تشكل في مجملها المفهوم الشامل للتربية الإسلامية ويمكننا أن نعرض هذه الأسس فيما يلي :

١ ـ التربية الإسلامية تربية تكاملية شمولية :

ويقصد بالتكامل أو الشمول هنا أنها لاتقتصر على جانب واحد من جوانب شخصية الإنسان . فالتربية الإسلامية ترفض النظرة الأحادية أو الثنائية إلى الطبيعة الإنسانية التي يتقوم على التمييز بين العقل والجسم وسمو العقل على الجسم وإنما هي تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب الشخصية . فهي تربية للجسم وتربية للنفس والعقل معا . ولاشك أن كل جانب من هذه الجوانب يؤثر في الآخر ويتأثر به . وقديما قالوا العقل السليم في الجسم السليم . كما أن في الجسم مضغة إذا صحت صح الجسم ، وإذا فسدت فسد الجسم ألا وهو القلب . والجسم هو مطية النفس والعقل في أداء الواجبات وتنفيذ ما أمرنا به الله . ولأهمية الجسم في التربية الإسلامية فإننا مطالبون بالعناية بصحتنا وأجسامنا "إن لبدنك عليك حقا " . فهناك حق البدن على صاحبه . وتعتبر طهارة الجسم شرطا للعبادة ، ونحن مطالبون بأن نجمل مظهرنا بتنظيف الثياب وأن نأخذ زينتنا

عند كل مسجد . وتخاطب التربية الإسلامية حواس الإنسان وقواه وتحتكم إليها " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا " . والإنسان مسئول عن الحفاظ على حياته وجسمه وحمايتهما من الخطر . وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: " كان في من قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز به يده فما رقأ الدم حتى مات . فقال الله بادرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة " . وورد عن النبي ﷺ أيضا قوله : " من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نارجهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا .. ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا فيها أبدا . . ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا .

والتربية الإسلامية تربية للعقل . ويحتل العقل في الإسلام مكانا هاما قل أن نجد له نظيرا في غيره من الشرائع . فهو أساس التكليف والاختيار والحساب واعتبرت المعرفة والعلم وهما غذاء العقل أساس التفاضل بين الناس . والتفكير وهو وظيفة العقل فريضة إسلامية . وهو ما حدا بمؤلف العبقريات الإسلامية عباس العقاد أن يجعله عنوانا لكتاب من كتبه الخالدة . والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحث على إعمال النظر والتأمل والفكر ووزن الأمور بموازين العقل والمنطق . ونبذ ما يتنافى معهما من خرافات وأباطيل وأوهام .

والتربية الإسلامية تربية نفسية لأنها تخاطب عاطفة الإنسان ووجدانه وقلبه وضميره وتحتكم إليها . . وأمرنا ديننا بأن نربي نفوسنا على الفضيلة والخير وحب الناس والتجرد من الأنانية وحب الذات ، وجعل أساس الحساب على الأعمال ما استقر في النفس لا بما ظهر من السلوك . وأمرنا ديننا بالتعفف وعزة النفس ورياضتها وتدريبها والتحكم فيها . بل لقد اعتبر ديننا جهاد النفس جهادا أكبر من جهاد الحرب والقتال . فقد ورد عن النبي ﷺ قوله بعد عودته من الحرب " رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يارسول الله ؟ . . قال : جهاد النفس .

وهكذا تكون التربية الإسلامية تحريرا للعقل من الوهم والخرافات لأنها تخاطب العقل وتحتكم إليه والإسلام دين العقل والنظر والتفكير والتأمل كما ذكرنا . كما أنها تحرير للنفس من الخوف والعبودية . وتحرير للجسم من الخضوع للذات والشهوات .

٢ - التربية الإسلامية تربية متوازنة :

تحرص التربية الإسلامية على تحقيق التوازن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة قال تعالى : " وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا " . ومن الأقوال المأثورة : إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا " . وهذا التوازن يميز التربية الإسلامية عن غيرها ، فهي ليست تربية صوفية أو رهبانية كما هي في المسيحية مثلا . فالتاريخ يحدثنا عن الرهبنة المسيحية ويشير إلى أهم قانون لها وهو قانون بنيديكيت الذي حدد ثلاثة التزامات لها هي: العفة والفقر والطاعة . ويتضمن التزام العفة نبذ العلاقة الزوجية والأسرية واستبدالها بروابط دينية روحية . ويتضمن التزام الفقر التخلي عن الاهتمامات المادية والدنيوية . وعلى الفرد قبل دخوله الدير أن يتخلى عن كل ثروته وأملاكه للدير . ويتضمن التزام الطاعة التخلي عن كل قوة أو جاه أو سلطان والخضوع التام لنظام الدير . ومثل هذا النظام لايقره الإسلام لأنه لارهبنة في الإسلام . إن الإسلام يتطلب المحافظة على خمسة أمور هي : الدين والنفس والمال والعقل والنسل . وذلك لأن الدنيا التي يعيش فيها الإنسان تقوم على هذه الأمور الخمسة ولا تتوافر الحياة الإنسانية الكريمة إلا بها وتكريم الإنسان هو في المحافظة عليها. (محمد أبوزهرة : ص ٨٦) .

إن الإنسان مطالب بأن يعمر الأرض . قال تعالى : " هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها " وهذا يعني أن الأرض مجال نشاط الإنسان وحياته يسكنها ويعمرها ويسخر قواها ويستخرج ثرواتها ويستمتع بخيراتها وطيباتها . وما كان الله ليخلق الطيبات ثم يحرمها على الإنسان . قال تعالى : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . والطيبات من الرزق " . إن الدنيا في نظر الإسلام ليست للتكفير عن الخطيئة كما تذهب المسيحية وإنما هي لتعمير الأرض وتحقيق رسالة الإنسان وهي استخلافه فيها . قال تعالى : " ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين " . وقال تعالى : " ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون " . وورد عن النبي قوله : " إن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون " . إن حق النفس على الإنسان أن يروح عنها وأن يعطيها من الراحة والأمن والطمأنينة والغناء والتسلية والهدوء في حدود ما أباحه الله .

لقد قال النبي ﷺ لمن فهم أن الدين ليس إلا تعبدا وتهجدا وصياما وابتعادا عن النساء : " إني أخشاكم لله ولكني أصوم وأفطر وأنام وأتزوج النساء " . إن إرهاق النفس ولو في طلب العبادة لايطلبه الإسلام ولا يرضاه لأن ما فيه مشقة فوق المعتاد لايمكن المداومة عليه وقد ينقطع به الجهد عنه (محمد أبوزهرة:ص٩٩) . وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : " إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولاتبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى " كما ورد عنه أيضا قوله : " لاتشددوا على أنفسكم يشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم " .

بيد أن استمتاع الإنسان بالدنيا مرتبط أيضا باستمتاعه في الدار الآخرة لأن صلاح الدنيا من صلاح الآخرة . وقد ورد في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٦٢ و ص ٢١ ذكر الدنيا والآخرة في القرآن الكريم بعدد متساو هو ١١٥ مرة . مما يؤكد التوازن بين الدنيا والآخرة في الإسلام . والله في خلقه شئون. قال تعالى : " ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " .وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : " اللهم أصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي " . إن التربية الإسلامية ليست مادية فحسب أو روحية فحسب ، وليست دنيوية فحسب أو أخروية فحسب ، وإنما هي وسط بين كل ذلك. وهذا الموقف الوسط أو المتوازن للتربية الإسلامية يجعلها أقرب ما تكون إلى طبيعة الأشياء ، فخير الأمور الوسط . " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " . كما يجعلها أيضا مراعية لطبيعة الإنسان وفطرته التي فطر الناس عليها . . وهو ما سنفصل الكلام عنه فيما بعد .

٣ - التربية الإسلامية تربية سلوكية عملية :

فهي لاتكتفي بالقول وإنما تتعداه إلى العمل والممارسة ونحن إذا نظرنا إلى المبادئ الرئيسية الخمسة التي بني عليها الإسلام نجد أنها تتطلب سلوكا عمليا . فالشهادة بواحدانية الله ونبوة محمد ﷺ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان كلها تتطلب سلوكا عمليا . ومن تمام كمال الإنسان المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله . كما اهتمت التربية الإسلامية بتكوين العادات السلوكية الحسنة عند الفرد منذ طفولته الأولى لما في العادات من أثر طيب في

اكتساب الفضائل والبعد عن الشرور والرذائل . والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل . كما أن الأعمال بالنيات ولكل امريء ما نوى .

٤ ـ التربية الإسلامية تربية فردية واجتماعية :

تقوم التربية الإسلامية على تربية الإنسان تربية فردية ذاتية ، فهي تربيه على الفضيلة ليكون مصدر خير لجماعته وتحمله مسئولية أعماله وتصرفاته . فكل أمريء بما كسب رهين . وكل مسلم راع وهو مسئول عن رعيته . وفي نفس الوقت يربي الإسلام الفرد تربية اجتماعية . فالمسلم أخو المسلم . والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . ومثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسم إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وهي تربية تجرد الفرد من روح الأنانية البغيضة . " لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه " . . " ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم " .

وتؤكد التربية الإسلامية على أهمية القدوة والوسط الاجتماعي في تنشئة الفرد . واهتمت بتكوين العادات الحسنة منذ النشأة الأولى للطفل لمخالطته للنماذج الطيبة وإبعاده عن قرناء السوء ، فمثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير . كما اهتمت أيضا بالوسط الأسري الاجتماعي كعامل هام في تربية الفرد . فالإنسان يولد على الفطرة وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

وقد اتجه الإسلام إلى إقامة مجتمع قوي بأفراده ويقوم على أساس العدل والمصلحة العامة . ولتحقيق هذه الغاية السامية اتجه الإسلام إلى تربية الفرد وتهذيبه ليكون مصدر خير لأمته . كما اهتم بإقامة العدل في الجماعة الإسلامية. والمسلمون يتساوون في أخوة الإسلام في رفع الظلم بينهم . . فالمسلم أخو المسلم لايظلمه . وأمرنا بالعدل في الأحكام والقضاء والشهادة وغيرها . ويرى بعض علماء المسلمين أن أجمع آية لمعاني القرآن عز وجل : " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تفكرون " . وهكذا تهتم التربية الإسلامية بتربية الفرد ليكون مصدر قوة وسعادة لنفسه ولأمته على السواء .

٥ - التربية الإسلامية تربية لضمير الإنسان :

ضمير الإنسان هو الموجه لسلوكه والرقيب على أعماله . وقد حرصت التربية الإسلامية على تربية هذا الضمير ليكون حيا يقظا في السر والعلانية كما أشرنا. فالله رقيب على تصرفات الإنسان حيثما كان ، وعلى الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه . " والله يعلم السر والجهر ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور". قال تعالى : " ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم " . والضمير الحي خير عاصم للإنسان من الزلل وقوة كبيرة لحفزه على العمل . وعندما يعرف الإنسان أن هناك ربا يحاسبه على أعماله وأنه رقيب عليه حيث كان فإنه يفكر فيي كل عمل قبل أن يقدم عليه.قال تعالى : " وإن تبدو وما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله " . وتربية الضمير تربية لإرادة الإنسان بحيث يصبح متحكما في تصرفاته ولايكون رهن نزواته وشهواته . وفي تكوين الضمير لجأ الإسلام إلى أسلوب الثواب والعقاب وهو أسلوب يتمشى مع طبيعة النفس الإنسانية .

٦ - التربية الإسلامية تربية لفطرة الإنسان وإعلاء لغرائزه :

تقوم التربية الإسلامية على التسليم بفطرة الطبيعة الإنسانية ، وأن الإنسان يولد بطبيعة إنسانية فطرية محايدة ، وقد ورد عن النبي ﷺ : " ما من مولود إلا ويولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " . ويقول الله عز وجل : " والله آخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا " .

والتربية الإسلامية تربية لهذه الفطرة الإنسانية وهي تعمل على تنمية الميل الفطري لدى الإنسان في معرفة ما يجهل وتستثمر حب المعرفة والبحث عن المجهول لديه . وقد استخدم الإسلام كل وسيلة ممكنة للوصول بهذا الميل الفطري إلى مرتبة الشغف بالعلم والتلهف الشديد المستمر لمعرفة ما في الوجود من معارف وأسرار .

والتربية الإسلامية تربية لفطرة الإنسان ، لأن الإسلام دين الفطرة وكل أوامره ونواهيه وتعاليمه تعترف بهذه الفطرة وتتمشى معها ولاتخالفها . واعترفت التربية الإسلامية من ناحية أخرى بجوانب الضعف في الطبيعة الإنسانية ولم تحملها فوق طاقتها . وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : " رفع عن أمتي الخطأ

والنسيان وما استكرهوا عليه " . . وأساس التكليف في الإسلام الاستطاعة ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

والتربية الإسلامية في تربيتها لفطرة الإنسان تتمشى مع روح الإسلام التي تقوم في أساسها على التوسط والاعتدال . فخير الأمور الوسط . وقد أمرنا ديننا بالابتعاد عن الإسراف ، فالله لايحب المسرفين . قال تعالى : " كلوا واشربوا ولاتسرفوا " . ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط " . "ولاتميلوا كل الميل " . " إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين " . " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " . . وغيرها من الآيات الكريمة التي تبين روح التوسط في الإسلام . وتسمو التربية الإسلامية بالإنسان وتعلي من شأنه باعتباره خليفه الله في الأرض. ولهذا كرم الله بني آدم وفضلهم على كثير من خلقه " ولقد كرمنا بني آدم " . "إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " . ويقتضي هذا السمو إعلاء لغرائز الإنسان حتى لايكون عبدا لهذه الغرائز وينحط إلى مستوى الحيوان . ونحن نستخدم كلمة الغرائز هنا لتعني الدوافع الفطرية في الإنسان . وقد عنيت التربية في الإسلام بأن تنشئ الفرد على التحكم في رغباته وعدم الانسياق وراء شهواته ونزواته . فموقف الإسلام الاعتدال والتوسط كما أشرنا . ويمكننا أن ننظر إلى الصوم على أنه إعلاء لشهوة الطعام عند الإنسان . كما أن الصوم أيضا إعلاء لشهوة الجنس لديه. وقد ور في الحديث " من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " . . أي حماية وعصمة من الخطأ والانسياق وراء النزوات .

وطريقة الإسلام في الإعلاء لغرائز الإنسان ودوافعه تقوم على أساس وضع معايير وأهداف عليا للحياة الإنسانية وتكوين الإرادة القوية . وهي عملية تدريب على الضبط الإرادي للإنسان وتحكمه في شهواته وبواعث الهوى لديه والتحكم في عواطفه ومشاعره بقوة الإرادة . فلا يسلم نفسه للغضب يسيطر عليه ولا الغلط يتحكم فيه ولا الرغبة في الانتقام تتسلط عليه . كما تعود الإنسان على القيام بالأعمال الصالحة وشغل وقت فراغه بطريقة مفيدة بناءة فيما يفيده ويعود عليه بالنفع إما بالعمل أو العبادة أو التسلية التي لاضرر فيها وبالأمور المباحة مثل الرياضة الجسمية والعقلية .

ويفكر الإنسان يستطيع أن يغلب العقل على الهوى . . فإذا استخدم الإنسان عقله تغلب به على الهوى والعكس صحيح . وفي ذلك يقول الإمام الغزالي : " الفكرة مترددة بين الشهوة والعقل . . العقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن . وإذا مالت إلى الشهوة تسفلته إلى أسفل السافلين وولدت القبائح .(الغزالي:١٩٦٣،ص ٥٦). قال تعالى وهو أصدق القائلين : " ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله " .

٧ ـ التربية الإسلامية تربية موجهة نحو الخير :

ذلك أن مجيء الإسلام كرسالة كان من أجل الرحمة بالبشر . وقد خاطب سبحانه وتعالى نبيه بقوله : " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " . إن التربية الإسلامية موجهة لما فيه خير الفرد والمجتمع ، فهي توجه الإنسان إلى الفضيلة بالالتزام بالخلق الكريم والتحلي بجميل الصفات ومعاملة الناس بالحسنى "فالدين المعاملة " . وحث الإسلام المسلمين على الخير وكل ما فيه سعادة الناس جميعا وجعل حب الخير للآخرين من تمام الإيمان " لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يجب لنفسه " . كما اهتمت بتنمية نزعات الخير في الإنسان من تعاطف وتراحم وتواد وتآخ وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر . ومثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " . ويقول الغزالي : (المستصفي جـ ١ ص ٢٨٧) أن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الحق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم ، لكننا نعنى بالمصلحة على مقصود الشرع من الخلق خمسة . وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة " . وجعل الإسلام مصالح العباد من أفضل العبادات . يقول عليه الصلاة والسلام : " الخلق كلهم عباد الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله " . وقال الشاعر في نفس المعنى :

الخلق كلهم عباد الله تحت سمائه . . . وأحبهم طراً إليه أبرهم بعياله

والتربية الإسلامية تقوم على إقامة العدل في المجتمع الإسلامي . . ولإقامة العدل جوانب متعددة منها العدل في المعاملة " عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به " . ومنها العدل في القضاء ، فالمسلمون سواء أمام أحكام الشرع . لافضل لغني على فقير ولاقوي على ضعيف ولا لعربي على عجمي . ومنها العدل

الاجتماعي ، فالقوي يساعد الضعيف ، والغني يساعد الفقير ، بل وفي أموال الأغنياء حق معلوم للسائل والمحروم .

ومن العدل أيضا التساوي بين الناس في الحقوق والواجبات . ومن هذه الحقوق حق العمل وحق التعليم . وفي تفسير مايتعلق بالتعليم قال بعض فقهاء المسلمين إنه يجب أن يكون التعليم على ثلاث مراحل . . المرحلة الأولى : فرض عين فيها يتعلم كل شباب الأمة الإسلامية . فمن كان يستطيع بكفاءته الفكرية التي كشفتها تلك المرحلة أن يدخل الثانية دخلها . ومن وقفت كفاءته الفعلية عن الدخول فيها وقف عند فرض كفاية تحتاج إليه الجماعة . إن الأمة في حاجة إلى يعمال يدويين وزراع يفلحون ويقومون على الحرث وإلى من يمهرون في الصناعات المختلفة التي لاتحتاج إلى تفكير كثير وإنما إلى أيد ماهرة كسبت مهاراتها بالتمرين والعمل . والذين اجتازوا المرحلة الثانية بنبوغ يدخلون المرحلة العليا وهي الثالثة . ومن وقف دون الدخول في هذه الأخيرة وقف عن فرض كفاية ، فإن الجماعة محتاجة إلى ذوي ثقافات متوسطة ليشرفوا على الأعمال ويديروا نظامها. ومن اجتازوا المرحلة العليا كان منهم قادة الفكر والمخترعون وبمقدار قواهم الفكرية لابمقدار عددهم تكون قوة الأمة الإسلامية وعظمتها المادية والروحية . فالاعتبار في هؤلاء بقواهم لا بالأعداد الكثيرة (محمد أبو زهرة : ص ٨٤) . إن إحدى الغايات الرئيسية المنشودة في التربية الإسلامية غاية أخلاقية تقوم على تربية الإنسان الخيِّر الذي يحيا حياة خيرة بعيدة عن الشر والأذى على المستوى الفردي والاجتماعي .

٨ - التربية الإسلامية تربية مستمرة :

فهي تربية لاتنتهي بفترة زمنية معينة ولا بمرحلة دراسية محددة وإنما تمتد على طول حياة الإنسان كلها . فهي تربية من المهد إلى اللحد . وهي تربية متجددة باستمرار تنمي شخصية الفرد وتثري إنسانيته . كما أنها تأخذ به إلى الأمام في طريق النمو والتقدم المستمرين .

إن الحياة لاتسير على وتيرة واحدة . فهي تتغير وتتطور ولابد للإنسان أن يساير هذا التطور وإلا تخلف عن ركب الحياة . والإسلام يساير التطور باستمرار لأنه صالح لكل زمان ومكان ولأنه يستند إلى كتاب أحكمت آياته وفصلت . والشريعة الإسلامية مطاوعة لكل زمان ومكان ، ومتمشية مع كل عصر ، وذلك

لتطور الأحوال ودورانها على مصالح الناس واحتياجاتهم المتجددة . والتربية الإسلامية هي انعكاس صادق لهذا التطور المستمر . وقد ورد عن علي بن أبي طالب قوله : " علموا أولادكم غير ماعلمتم ، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم ".

وفي الإسلام ليس هناك نهاية أو سن محددة لطلب العلم . ويقول الزرنوجي في تعليم المتعلم طريق التعلم " إنه لا عذر لصحيح الجسم والعقل في ترك طلب العلم مهماكان عمره . وسئل أبو عمرو بن العلاء حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ أجاب : ما دامت الحياة . وسئل حكيم : ما حد التعلم ؟ فأجاب حد الحياة . ويرى ابن قتيبة أنه " لايزال المرء عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل " . والحكمة ضالة المؤمن ، ينشدها حيثما كانت مادامت فيه الحياة. وقد أشرنا إلى الرحلة في طلب العلم في الإسلام في مكان آخر من مؤلفاتنا المفصلة عن التربية الإسلامية .

٩- التربية الإسلامية تربية متدرجة :

قلنا إن هدف التربية في الإسلام بلوغ الكمال الإنساني بالتدريج . وهذا التدرج صفة مميزة للتربية الإسلامية . ذلك أن التربية الأخلاقية تتأتى للفرد بالتدريج . وقد كان الإسلام نفسه في أول أمره تربية متدرجة للعرب . . فقد نزلت آياته وأحكامه بالتدريج لفترة تزيد قليلا عن ثلاث وعشرين سنة . ويعتبر التدرج في التربية الأخلاقية أساسا من الأسس المعروفة في التربية الإسلامية . فالتربية نفسها عملية أخلاقية واكتساب الأخلاق بما فيها التحلي بالفضائل والترفع عن الرذائل عملية تحتاج إلى وقت حتى يكتسب الإنسان السلوك المطلوب والعادة المرغوبة . إن الإسلام في تربيته للمسلمين الأوائل لم ينتقل بهم طفرة من أخلاقهم القديمة إلى الأخلاق الإسلامية الجديدة . إنما تدرج معهم في الأمور حتى تؤتي التربية نتائجها وثمارها .

وهكذا لم يكلف المسلمون في أول عهدهم بما يشق عليهم فعله أو تركه . وسلك الإسلام بهم سبيل التدرج والرفق حتى يتهيأوا للتكليف ، فالصلاة مثلا في أول الأمر لم تفرض عليهم خمس مرات في اليوم ، بل طلبت منهم صلاة بالغداة والعشي . ولم تفرض عليهم الزكاة والصيام إلا بعد الهجرة بسنة . وكان التكليف قبل ذلك بما استطاعوا من صدقة أو صوم . ومن المعروف أيضا أن تحريم الخمر على المسلمين تم على مراحل وبعد أن تدرج القرآن معهم حتى انتهى بهم

إلى تحريمه بطريقة طبيعية . ولم يحرم عليهم الميسر وكثيرا من عقود الزواج والربا والمعاملات التي كانوا يتعاملون بها في جاهليتهم إلا بالمدينة . (عبد الوهاب خلاف : ص ٢٨٩).

وقد اهتم الإسلام بتوفير الضمانات المناسبة لتنشئة الخلف الصالح بطريقة متدرجة فأوصانا بأن نتخير منذ البداية لنطفنا فإن العرق دساس . كما طالبنا باختيار الزوجة الصالحة المتدينة لأنها أساس تربية الأبناء . وقال رسول الله ﷺ : (ما ورث والد ولداً خيرا من أدب وحسن) وقد اهتم الإسلام بتنشئة الطفل منذ ولادته . ويشير الغزالي إلى أهمية المرضعة وأثر لبنها على أخلاق الطفل الرضيع فيقول: "فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لابركة فيه فإذا وقع عليه نشوء الصبي تعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يماثل الخبائث " (الغزالي ، إحياء علوم الدين جـ ٣ ، ص ٧٢) . وقد ورد عن النبي ﷺ قوله : " لاتسترضعوا الورهاء " أي الحمقاء. ويقول ابن سيناء " فإذا فطم الصبي عن الإرضاع بدئ بتأديبه ورياضته قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة . وتفاجئه الشيم الذميمة . فإن الصبي تبادر إليه مساوئ وتنتال عليه الضرائب الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعا .فينبغي لمعلم الصبي أن يجنبه مقابح الأخلاق وينكب عنه معايب العادات بالترغيب والترهيب بالإيناس والإيحاش وبالإعراض والإقبال وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ماكان كافيا"(ابن سينا: السياسة :ص١٢).

ويميز علماء المسلمين بين مرحلتين رئيسيتين في التربية الأخلاقية للطفل . المرحلة الأولى ويسمونها بمرحلة " التخلية " أي تخلية طبع الطفل من كل رذيلة وإبعاده عن كل مؤثرات الشر والسوء وعدم مخالطته لقرناء السوء . فقد نهانا الرسول عن قرناء السوء فقال : " إياك وقرين السوء . وقال ﷺ لا تصاحب الفاجر فتتعلم منه فجوره " . وقال : " والرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال ". أما المرحلة الثانية فهي مرحلة " التحلية " والتزكية ويقصد بها تحلية الطفل بالفضائل الكريمة والأخلاق المحمودة عن طريق تشربه لهذه الأخلاق واكتسابه العادات الحسنة من مخالطته للقدوات الصالحة . والمسلم الكامل هو الذي اكتملت أخلاقه بإكتمال دينه وإيمانه . يقول الرسول ﷺ: (خيركم إسلاما

احسانكم أخلاقا إذا فقهوا) . وقد اهتم المربون المسلمون بضرورة مراعاة التدرج في التعليم ويقول الغزالي في ذلك : إن أول واجبات المربي أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه لأن الموضوعات الصعبة تؤدي إلى ارتباكه العقلي وتنفره من العلم . ويطالب الغزالي المعلم ألا يخوض في العلم دفعة واحدة بل يتدرج فيه مع مراعاة الترتيب ويبتدئ بالأول . كذلك ينبغي عليه ألا يخوض في علم إلا بعد أن يستوفي ما قبله ، فالعلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق بعض .

ونادى ابن خلدون بما نادى به سابقوه من مراعاة التدرج في تعليم الصبيان ومراعاة قدراتهم . إلا أنه يتميز عن سابقيه فيماذهب إليه القول بمبدأ التكرارات الثلاثة في عمليات التعليم . وتشير هذه التكرارات إلى ثلاث مراحل متدرجة في التعليم . يكون التعليم في المرحلة الأولى إجمالا وفي الثانية تفصيلا وفي الثالثة تعميقا بدراسة ما استشكل في العلوم ووسائل الخلاف فيه . ويقول ابن خلدون في ذلك : " إن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا . يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن . وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة . وغايتها أنها هيأته لفهم الفن ومحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها . ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات . وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك حسب ما يخلق له ويتيسر له " . ويعيب ابن خلدون على المعلمين الذين يجهلون الطريقة الصحيحة للتعليم وأنهم يقدمون للمتعلم في أول عهده بالتعليم المسائل الصعبة أو المشكلة مما يعوق تعليمه . يقول ابن خلدون في المقدمة :

"وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طريق التعليم وإفادته.ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه.

فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا . ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثلة الحسية ".

١٠ ـ التربية الإسلامية تربية محافظة مجددة :

التربية الإسلامية تربية محافظة مجدده . فهي محافظة بما تقوم عليه من مبادئ سماوية خالدة راسخة ثابتة ، وقيم أصيلة عريقة تمتد بجذورها في التاريخ إلى ما يقرب من أربعة عشر قرنا من الزمان . وتعمل التربية الإسلامية على استمرار هذه المبادئ والتقاليد والقيم ونقلها إلى الأجيال الإسلامية المتعاقبة . . وهي بهذا تقوم بالدور الأصيل للتربية في التنشئة الاجتماعية للأفراد وتشكيل شخصياتهم الإنسانية الإسلامية ليشبوا مسلمين . ولكن التربية الإسلامية ليست تربية محافظة فحسب وإنما هي تربية مجددة أيضا. فالإسلام صالح لكل زمان ومكان ، والمسلمون تتجدد أحوالهم بتجدد ظروف هذا الزمان والمكان . ولذلك كان على التربية الإسلامية أن تكون متجددة لتواجه متطلبات العصر ولتفي بالمطالب المتجددة لحاجات المسلمين ومصالحهم على مر العصور والأزمان .

١١ ـ التربية الإسلامية تربية إنسانية عالمية :

فهي تربية بعيدة عن التعصب أو التمييز العرقي أو الاجتماعي . فلا شعوبية في الإسلام ولافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى وصالح العمل . قال تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " . وورد عن النبي ﷺ " كلكم لآدم وآدم من تراب " . وهي تربية لاتختص بها فئة من الناس ولا تقتصر على طبقة مميزة دون طبقة ،وإنما هي تربية يتساوى فيها الجميع ويكون التفاضل بينهم على أساس التقوى والإيمان وصالح العمل لا الحسب والنسب والجاه .

والمسلمون متساوون في العبودية المطلقة لله عز وجل . وقد ألزم الإسلام نبيه بالعدل " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " . كما أمره بالمساواة في المعاملة بين الناس دون أي تمييز . فالمسلمون سواء في الحقوق أو التكاليف والمسئوليات . ويقول عليه الصلاة والسلام : " المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم حرب على من سواهم " . والتربية الإسلامية تربية إنسانية لأنها تقوم على أخوة الإيمان . " إنما المؤمنون أخوة " . و " المسلم أخو المسلم

لايظلمه ولا يخذله ولا يحقره " . والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ومن كل عرق ولون ولغة أعضاء في الأسرة الإسلامية الواحدة يؤلف الإسلام بين قلوبهم ويجمعهم على قلب رجل واحد في جسد واحد . وهي تربية عالمية لأن الإسلام رسالة عالمية جاءت للناس كافة وعالمية الرسالة الإسلامية تعني أيضا عالمية التربية الإسلامية .

أساليب التربية الإسلامية :

يقوم منهج التربية الإسلامية على أساليب متنوعة بحسب مناسبتها لتحقيق الغرض المطلوب منها . على أن هذه الأساليب تتكامل فيما بينها لتناسب كل المواقف وتتكيف حسب الأغراض . ومن أهم هذه الأساليب :

أسلوب القدوة الصالحة :

للقدوة الصالحة أهمية كبرى في تربية الفرد وتنشئته على أساس سليم لاسيما في الفترة الأولى من حياة الإنسان حتى مرحلة النضج والبلوغ . فالطفل منذ ولادته يكتسب ألوان السلوك من خلال تقليده ومحاكاته للآخرين . ويتوقف ما يكتسب الطفل من عادات مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها على نوع القدوة التي نعرض لها في تربيته . وهذا يؤكد أهمية القدوة في تحديد سلوك الإنسان والعادات التي يكتسبها . وتؤكد التربية الإسلامية أهمية أسلوب القدوة الصالحة في تنشئة الأجيال الإسلامية تنشئة سليمة يتحقق معها الخير لأنفسهم والمسلمين جميعا . وقديم قال الشاعر العربي : وكل قرين بالمقارن يقتدى . وقال آخر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ماكان عوده أبوه

وقد دعا الإسلام إلى الاقتداء بالرسول نبينا الكريم . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " . وضرب الرسول عليه السلام مثل الجليس الصالح والجليس السوء وشبههما ببائع المسك ونافخ الكير . وهذا يعني أن نتخير لأبنائنا ولأنفسنا القدوة الصالحة التي يكون في تقليدها الخير والمنفعة والابتعاد عن مخالطة قرناء السوء تجنبا للشر ودفعا للمضرة . كما يجب أن يكون الأبوان في المنزل والمعلمون في المدرسة نماذج طيبة في السلوك حتى يساعدوا الناشئة على تشرب العادات الإسلامية الطيبة منذ نعومة أظفارهم . وينبغي أن يدرك المعلمون ذلك تماما وأن يتعدوا حدود النظرة الضيقة التي تحدد ميدان تأثيرهم على تلاميذهم في مادة تخصصهم التي

يدرسونها لهم .

٢ - أسلوب الترغيب والترهيب :

يعتبر أسلوب الثواب والعقاب من الأساليب الطبيعية التي تستند إليها التربية في كل زمان ومكان . فهذا الأسلوب يتمشى مع طبيعه الإنسان حيثما كان وأيا كان جنسه أو لونه أو عقيدته . فالإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بالنتائج الضارة أو النافعة والسارة أو المؤلمة التي تترتب على عمله وسلوكه.والتربية الإسلامية تستخدم أسلوب الترغيب والترهيب لما له من أهمية بالغة في التنشئة الصالحة لأبنائنا.فأسلوب القرآن الكريم في تصوير الجنة ونعيمها والنار بأهوالها وعذابها إنما هو أسلوب مناسب لطبيعة الإنسان التي تسعى دائما وراء المنفعة وتبتعد ما أمكن عن المضرة.وهكذا يصبح الجزاء من جنس العمل وهو مبدأ منطقي لايستطيع أحد المجادلة فيه "ويومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " .

والآباء في تعاملهم مع أبنائهم والمعلمون مع تلاميذهم بل والمجتمع الإسلامي الكبير يستخدم هذا الأسلوب التربوي على أوسع نطاق . بيد أنه ينبغي أن نشير إلى أن الأسلوبين وإن كانا لازمين في الاستخدام لتفاوت طبائع الناس واختلافهم في الامتثال للأصول والقواعد الإسلامية لايتساويان في قيمة الأثر الذي يحدثه كل منهما . فأسلوب الترغيب أفضل من أسلوب الوعيد والترهيب لأن الأسلوب الأول إيجابي وأثره باق لأنه يعتمد على استثارة الرغبة الداخلية للإنسان في حين أن الأسلوب الثاني سلبي وأثره موقوت لأنه يعتمد على الخوف . وقد ضرب الله لنا مثلا بأنه وإن كان يحاسب الناس على ذنوبهم يترك الباب مفتوحا أمامهم للتوبة والعودة إلى الله " فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنه الله يتوب عليه " " وإن الله يحب التوابين " . وفي حين أن الله سبحانه وتعالى يضاعف الحسنات لأصحابها فإنه يتجاوز عن السيئات في الحدود التي أوضحها لنا . ويكون استخدام العذاب أو العقاب بعد أن تكون الأساليب الأخرى من نصح وهداية وإرشاد قد عجزت عن أن تحقق المطلوب منها . وهذا يعني أن يعول في التربية الإسلامية على أسلوب الترغيب بصورة أكثر " قل أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة " . إن الإنسان معرض للخطأ والوقوع فيه . فجل من لايخطئ

ومن منا كملت صفاته ؟ ولذلك نجد أن الأسلوب الإصلاحي للتربية الإسلامية يفتح الباب أمام العودة إلى الطريق السليم . وفي هذا صلاح للمذنب أو المخطيء وإلا تمادى في خطئه . قال تعالى : " قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله " إن الله يغفر الزنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم " وفي الحديث الشريف : " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " .

٣ - أسلوب الموعظة والنصح :

وهو من الأساليب المعروفة في التربية الإسلامية وله تأثيره الحسن في النفوس . لأنه يتطرق إلى النفس الإنسانية من مداخلها الحقيقية . ويجعل الناصح في نظر المنصوح شخصا طيب النوايا حريصا على المصلحة . ومن هنا يكون لكلامه قبول حسن . ويكون هذا الأسلوب فعالا ويؤتي ثماره عندمايكون النصح صادرا من القلب . لأن ما يصدر عن القلب يصل إلى القلب . وفي القرآن الكريم عظات كثيرة " إن الله نعما يعظكم به " . بل إن القرآن كله موعظة وهدى ورحمة للمؤمنين . وفي أسلوب العظة والنصح مجال كبير للمعلمين في توجيه طلابهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم وإلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم . إلا أنه ينبغي على المعلم أن يكون ذكيا لبقا في نصحه وأن يبتعد عن أسلوب الأوامر والنواهي على طريقة اعمل كذا ولا تعمل كذا .فإن هذه الطريقة إلى جانب أنها قد تكون منفرة للمتعلم لا تحقق الهدف المنشود منها.وأولى للمعلم أن يستخدم الأسلوب غير المباشر في النصح والتوجيه كأن يستعين بالقصص.وللقصص أثر في النفوس.ويمكن أن تتضمن القصة المغزى الأخلاقي أو التربوي المرغوب.وقد جاء القرآن الكريم بالقصص المعلمة ذات المغزى"نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن"و"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ".

ويمكن للمعلم أيضا أن يستعين بدروس من التاريخ وما فيه من عظات وعبر. فكم من أمم هوت لفساد أخلاق أبنائها ، وكم من حضارات انهارت لتفكك مجتمعاتها وانحلالها . وكم من أناس هلكوا لطغيانهم وكفرهم ،وغير ذلك من الدروس التاريخية التي يمتليء بها القرآن الكريم وكتب التاريخ .

٤ - أسلوب المحاورة والمناظرة :

من الأساليب التي تقوم عليها التربية الإسلامية في توجيه الإنسان نحو الحق والخير أسلوب المحاورة والمناظرة والإقناع والاقتناع عن طريق العقل والمنطق .

والقرآن الكريم مليء بالأمثلة التي تؤكد أهمية الصفة العقلية للإنسان . وعلينا كمسلمين أن نستخدم عقولنا في التمييز بين الصواب والخطأ وبين الصالح والطالح من الأمور. وقد ضرب الله مثلا لرسوله الكريم بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة " لاإكراه في الدين " .

ويتضمن أسلوب المحاورة والمناظرة في التربية الإسلامية ضرورة تعريف الناشئة بالأساس العقلاني والمنطقي لأي قضية مطروحة أمامهم وألا يرددوا المعلومات ترديدا أعمى دون فهم لمضمونها الحقيقي أو دون إدراك لارتباطها بواقعهم الفردي والاجتماعي . كما يجب أن تتاح لهم الفرصة للمناقشة الجادة البناءة التي تحلل أبعاد الموضوع المطروح للمناقشة وتلقي الضوء على جوانبه المختلفة . ومن الطرق التي يمكن أن يلجأ إليها المعلم لإقناع التلاميذ في الأمور الدينية لاسيما في الغيبيات أن يوضح لطلابه أن هناك أنواعا مختلفة من المعرفة من بينها المعرفة اللدنية الغيبية والنقل عن السلف الصالح . وأن هذا اللون من المعرفة قد يقصر عقل الإنسان عن فهمه وتصوره وما أكثر الأمور التي تبين ذلك حتى في ميدان العلم الطبيعي أو التجريبي . والكون من حولنا مليء بالظواهر التي لانراها ولاتحسها ولانسمعها . ومع ذلك لايستطيع أحد أن ينكر وجودها ومن أمثلتها الموجات الصوتية والضوئية . وهناك كائنات متناهية في الصغر لايمكن رؤيتها بالعين المجردة . وهناك أصوات متناهية في الدقة مثل دبيب النمل لايمكن سماعه بالأذن العادية . وهذه أمور موجودة لم يكن يعلم الإنسان من قبل عنها شيئا . وقد يصعب على العقل مثلا تصور اختراق الأشعة السينية للأجسام الصلبة . وليس من الضروري أن نستدل على الشيء بوجوده المباشر وإنما عن طريق آثاره ، فقديما قالوا البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير .

ومظاهر إبداع الكون تدل بالتالي على عظمة خالقه . والعلم الحديث يأخذ بهذا الأسلوب من التفكير . فالطاقة مثلا هي موضوع علم الطبيعة برمته ومن الصعب تعريفها تعريفا مباشرا إلا من خلال آثارها التي تحدثها أو من خلال ما يعرف بالتعريف الإجرائي الذي يعرف الظاهرة بإجراءاتها وعملياتها التي تتضمنها . ونحن في التربية لانعرف على وجه التحديد ماذا يحدث في عقل الإنسان نتيجة لعملية التعلم . نحن نسلم بأن الإنسان يتعلم ألوانا من المعارف والسلوك والمهارات أما كيف يحدث هذا التعلم في الإنسان وما الأثر الذي يحدثه

في عقله ؟ فهذا اجتهاد للنظريات التي تحاول تفسير التعلم عند الإنسان .

والحياة نفسها فيها المعقول واللامعقول . ونحن نرفض قبول الجانب اللامعقول فيها عندما نفكر بطريقة عقلية منطقية . ومع ذلك نحن نعيش هذا الواقع ونتأثر به . كم منا مثلا يسلم علميا أو منطقيا بما يقال أحيانا " من عاش بالصحة مات بالمرض " أي أن من يعيش ملتزما تماما بالأصول الصحية لابد وأن يموت مريضا . ومع ذلك فإن الحياة قد تظهر لنا في بعض الأحيان أنه أحد قوانينها . والنظرية العلمية نفسها ليست خالدة وكم من نظريات العلم التي سادت التفكير في فترة ما ثبت خطؤها أو عدم صحتها فيما بعد . وأرجو ألا يفهم من ذلك أنني أشكك في العلم أو أقلل من أهمية منجزاته فإنني أردت من كلامي السابق أن أبين اختلاف أساليب الإقناع وأن العقل الإنساني نفسه محدود والإنسان قد يصل إلى الإقتناع العقلي ومع ذلك يكون أسيرا لعادة تحكمت فيه . فكثير منا مثلا مقتنع بمضار التدخين ومع ذلك لايستطيع أن يمتنع عنه . وقد يكون الإنسان مقتنعا بشيء من الناحية العقلية المنطقية لكنه غير مقتنع من الناحية العاطفية أو الوجدانية مما يحول بينه وبين السير في الطريق الذي يمليه التفكير العقلي أوالمنطقي . ويبدو هذا الأمر بوضوح في المسائل التي تتصل بعواطف الإنسان . ولذلك تهتم التربية الإسلامية بتربية الإنسان المسلم تربية سليمة تمكنه من التحكم في عواطفه والسيطرة عليها والبعد به عن التعصب الأعمى . ويجب أن يهتم المعلم في إقناعه لتلاميذه بالأساس العقلي الذي يساعد على تزكية العواطف النبيلة لدى الإنسان ومثله العليا في الحق والخير والجمال .

والواقع أن المربين المسلمين قد اهتموا بأسلوب المناظرة والحوار في التدريس واعتبروه أسلوبا مفضلا مجديا في التعليم . يقول الزرنوجي إن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر بأكمله في الحفظ والتكرار . ويؤكد ابن خلدون أن الطريقة الصحيحة في التعليم هي التي تهتم بالفهم والوعي والمناقشة لا الحفظ الأعمى عن ظهر قلب . ويشير إلى أن " ملكة العلم " إنما تحصل بالمحاورة والمناظرة والمفاوضة في مواضيع العلم . وهو يعيب طريقة الحفظ عن ظهر قلب ويعتبرها مسئولة عن تكوين أفراد ضيقي الأفق عقيمي التفكير لايفقهون شيئا ذي بال في العلم . ولذلك عزا تدني مستوى التعليم في بلاد المغرب في عصره (القرن ١٤م) إلى إهمال طريقة المحاورة

والمناظرة في التعليم وعنايتهم بالحفظ دون سواه .

وقد احتاط المربون المسلمون من سوء استخدام أسلوب المناظرة والحوار بأن وضعوا له بعض الشروط التي تجعل منه أسلوبا فعالا للتعلم والبحث العلمي . من أهمها أن يكون هدف المناظرة الوصول إلى الحقيقة لا التضليل وحب الانتصار بالباطل . كما يشترط في المتناظرين الإلمام بموضوع المناظرة والتحلي بالهدوء وسعة الصدر وعدم التكلف وغيرة الصدر . ومع أن أسلوب المناظرة هو أقرب إلى الدراسات العالية فإننا نجد صورة مبسطة منه في أسلوب الحوار والنقاش الذي يديره المعلم مع تلاميذه ليحفزهم على التفكير .

٥ - أسلوب المعرفة النظرية :

يعتبر أسلوب المعرفة النظرية من أقدم وأشيع الأساليب المستخدمة في التربية.وهو يعتبر من الأساليب التي تقوم عليها التربية الإسلامية.وللمعرفة والعلم قيمة حقيقية في الإسلام.فلا يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون بصرف النظر عما يعلمون.وقد أشرنا في مكان آخر أن الإسلام اعتبر العلم طريقا لطاعة الله وخشيته.كما سبق لنا أن بينا بالتفصيل مكانة العلم في الإسلام في مكان آخر من مؤلفاتنا * .

والمعرفة النظرية مهمة في حد ذاتها لأنها تنمي عقل الإنسان وفكره وتساعده على تكوين خلفية ثقافية تمكنه من التعامل مع مجتمعه وتساعده على القيام بدور المواطنة الصالحة فيه . ولقد تعالت الصيحات من جانب المربين يتساءلون حول جدوى المعرفة النظرية وانتقدوا التعليم المعاصر لأنه تعليم لفظي نظري يفتقر إلى مغزاه الوظيفي والتطبيقي . وقد ترتب على ذلك عزلة التعليم عن مجتمعه ونفور الطلاب في بعض الأحيان منه وعزوفهم عنه . وقد حدا هذا الوضع ببعض المربين إلى وصف المعلمين بأنهم أناس يحاولون أن يعلموا أناسا آخرين أشياء لايرغبون في تعلمها . وقد يكون في هذا الأمر بعض المبالغة التي تغلف ما في هذه الدعوى من صحة . ولكن ذلك لايقلل بأى حال من الأحوال من المعرفة النظرية. ولن يكف التعليم المدرسي في يوم ما عن تقديم هذا اللون من المعرفة

---

* لتفصيل الكلام عن هذا الموضوع وعن التربية الإسلامية بصفة عامة أرجع لكتاب لنفس المؤلف بعنوان : التربية الإسلامية :أصولها وتطورها في البلاد العربية . عالم الكتب .القاهرة . ٢٠٠٠ .

لضرورته وأهميته . إن أية فكرة عملية لابد أن تبدأ بفكرة في عقل الإنسان ، والإنسان يفكر بالرموز في ضوء معرفته .

والإسلام كما أشرنا يحترم العلم وأهله ويقدرهم . كما أنه يعتبر المعرفة أساس المساءلة " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " . ولكن التربية الإسلامية في اهتمامها بأسلوب المعرفة النظرية كأحد الأساليب التي تستخدمها فإنها أيضا تؤكد أهمية الأساليب الأخرى التي تتكامل فيما بينها لتكون المنهج الشامل للتربية في الإسلام .

٦ - أسلوب الممارسة العملية :

من الأساليب التي تهتم بها التربية الإسلامية أسلوب الممارسة العملية . وقد سبق أن أشرنا إلى أن التكاليف الإسلامية كلها والمبادئ الرئيسية للإسلام من شهادة بوحدانية الله ونبوة محمد ﷺ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان إنما تتطلب ممارسة وأسلوبا عمليا من جانب الإنسان . ويجب أن يتطابق سلوك المسلم الحق مع ما في ضميره وقلبه " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمريء ما نوى " . وأن الله سبحانه وتعالى يحاسبنا على أعمالنا بمقدار ما ترتبط هذه الأعمال بنوايا الإنسان وسرائره . فالله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل وينبغي على المربي المسلم أن يهتم بتنمية السلوك العملي الرشيد وأن يدرك أن تلاميذه إنما يحسن تعليمهم إذا هم مارسوا ما تعلموه من خلال خبرتهم وتجربتهم المباشرة . كما يجب أن يهتم المعلم بإظهار الجوانب الوظيفية والتطبيقية لما يتعلمه التلميذ في واقع حياته كفرد في واقع المجتمع الإسلامي الكبير . وعليه أن يدرك أن الناشئة الصغار لايمكن أن يتعلموا ألوان السلوك الديني والاجتماعي إلا إذا مارسوها وأصبحت عادة لديهم. وهذا يعني ألا يقتصر المعلم على المعرفة اللفظية وإنما يجب أن يتعدى ذلك ليربط بين الفكر والعمل والنظرية والتطبيق .

٧ - أسلوب التلقين والحفظ :

ساد أسلوب التلقين والحفظ في الممارسات التعليمية القديمة ومازال يمارس حتى الآن . ويرجع ذلك بالطبع إلى التصور الذي كان يؤمن به المعلمون بالنسبة لعملية التعلم . فقد كان الهدف من التعليم حفظ القرآن الكريم أولا عن ظهر قلب . ومن هنا انتقل الحفظ إلى باقي المواد الدراسية . وكأن التحصيل الدراسي

غاية في ذاته . وقيمة التلميذ تقاس بمقدار ما حفظه من معلومات وتحصل في عقله من معارف . وليست التربية الإسلامية وحيدة زمانها في ذلك وإنما هي ممارسة شاعت في التعليم في مختلف المجتمعات وعلى مر العصور والأزمان .

وتركز الطريقة التلقينية على تعليم المواد الدراسية وحفظها وترديدها بدون فهم وتعطيها كل عنايتها دون اهتمام خاص أو عناية بالمتعلم نفسه . وقد انتقد المربون ومنهم المربون المسلمون الطريقة التلقينية وطريقة الحفظ بدون فهم وفضلوا عليها طريقة المناقشة والحوار .

٨ ـ أسلوب الشرح :

وهو أسلوب كما يتضح من أسمه يعتمد على قيام المعلم بشرح الدرس لتلاميذه وتوضيح ماصعب منه أو غمض فيه . وإذا كان الطلاب يدرسون من كتاب معين يطالب المعلم أحدهم بقراءة النص من الكتاب ثم يتولى هو شرحه والتعليق عليه . ويقوم الطلاب بكتابة شرح المعلم أو تعليقه على هوامش الكتاب. وقد يقوم المعيد أو العريف بقراءة نص الكتاب بدلا من الطلاب . وقد يقوم أيضا بالشرح بعد انتهاء المعلم من درسه ليزيد من توضيح الشرح لمن يحتاج إلى المزيد من الطلاب . وقد يقوم بعض العلماء بشرح متن النص والتعليق عليه مثلما فعل الأشموني في شرحه لألفية ابن مالك وما فعله العيني في شرحه للشواهد وغيرهما . وكان لهذه الشروح والتعليقات أهمية كبيرة لدى المتعلمين المسلمين واعتبروها من الجهود العلمية القيمة التي يجب الحرص عليها وتحمل المشقة في الحصول عليها .

٩ ـ أسلوب الإملاء :

وهو أيضا من الأساليب المعروفة في التربية الإسلامية . فكان المعلم يقوم بإملاء الدرس على طلابه ويقومون هم بكتابته ليرجعوا إليه عند مذاكرته . وكان الإملاء عادة مصحوبا بشرح المعلم وتفسيره لما غمض . ويقوم الطلاب بكتابة هذه الشروح على هامش كراساتهم . وعندما تكتمل أمالي الشيخ أو المعلم في الموضوع قد تقرأ عليه مرة ثانية للتأكد من صحتها ودقتها . وهناك أماني معروفة مشهورة أشهرها أمالي أبي علي القاني التي أملاها في جامع الزهراء بقرطبة وأمالي ابن الماحب وأمالي الشريف المرتضى الذي توفي ببغداد (عام ٤٣٦هـ) وأمالي ابن دقيق العيد في مصر وغيرهم .